الدرس التاسع

تفسير سورة القلم [٣٥ : ٤١]

{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) }.

{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}، هذا سؤال للإنكار، ينكر الله تعالى على من سوى بين المختلفات ، ميزان الله تعالى ميزان عدل، ميزان قسط، لا يسوي الله تعالى فيه بين المختلفات كما لا يفرق بين المتماثلات، فلا يكون المسلم الذي أسلم وجهه لله تعالى وانقاد له، كالمجرم سواءً، كما قال في الآية الأخرة: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص:٢٨] يعني لا يكون هذا، فالله تعالى حكم عدل مقسط لا يمكن أن يسوي بين المسلمين والكفار، وبين المسلمين والمجرمين، فكل يأخذ ما يستحق.

{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل:٥-٧]، الجنة، {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل:٨-١٠] النار. فلا يمكن أن يسوي الله تعالى بين المسلمين والمجرمين لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى وإن بدا للإنسان في الدنيا أنه يلحق المؤمنين الأذى والضنك وغير ذلك ويرى أن الكفار يعيشون في رفاهية فإن هذه

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

صورة ظاهرة، ولا تظنن أن هذا المتاع متاع تام، بل هو منغص عليه، فالله تعالى حكم عدل مقسط.

وحاشا الرب ﷻ أن يقع منه ذلك، فقد قال في الحديث القدسي: « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»[1].

وإذا سكن القلب الشعور بعدل الله تعالى زال منه كل شعور بالحنق والتغيظ والأسى، وعلم أن الله ﷻ لا يظلم مثقال ذرة، {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٤٠].

{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} استفهام إنكار وتعجب كيف يخيل إليكم فتظنون أن لكم كرامة عند الله ومنزلة ومقاما؟! القضية ليست بالدعاوى، ولا بالأماني الفارغة، ولهذا قال ربنا ﷻ: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء:١٢٣] هذه أخوف آية في كتاب الله.

وأراد الله تعالى أن يزيف مقالاتهم وشبهاتهم وحججهم التي يتشبثون بها ليسوغوا ما هم عليه من الشرك والكفر بنعمة الله وتكذيب أنبيائه ورسله، فذكر الدعاوى المحتملة وأبطلها، فقال: {أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ}، أعندكم كتاب ترجعون إليه وتستشهدون به وتستدلون؟ لو قدر ذلك فحالكم أنكم تخيرون، وتنتقون ما يعجبكم وتدعون ما لا يعجبكم، {إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} استهجان لطريقتهم في الاستدلال .وفي هذا تنبيه على أن من أراد أن يستدل فيجب أن يكون

[1] أخرجه مسلم- (٢٥٧٧).

دافعه إصابة الحق، فلا يتشهى في استنباط الأحكام ولا يتتبع الرخص، ثم يطرح احتمالا آخر {أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} هل أخذتم عهدا من الله ﷻ موثقا بضمان الجنة ساريًا إلى يوم القيامة؟ كلا بل هو مجرد تحكم ليس إلا. فآلت مزاعمهم إلى أحد أمرين: التشهي والتحكم.

{سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ} من يستطيع منكم أن يزعم هذا الزعم، فيقول أنا زعيم بذلك، أنا أدعي ذلك؟ لا يستطيع أحد أن ينتصب لهذه الدعوى الباطلة، وهذا أسلوب تحدي.

ثم قال ﷻ: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}، يعني أيزعمون أن لهم آلهة تحول بينهم وبين عذاب الله وتدخلهم الجنة وتمنعهم من النار؟ {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}، والحق أن أولئك الشركاء من الأصنام والمعبودات دون الله ﷻ لا تغني عنهم شيئا، {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُون} [الأحقاف:٥].

هذا حال المشركين يتعلقون بهذه المعبودات سواء كانت أصناما أو أمواتا أو بشرا أو جنا أو ملائكة كل من تعلق بمعبود سوى الله ﷻ فإنه لا يغني عنه من الله شيئا، وهكذا يتقصى القرآن كل دعوى يدعونها وكل شبهة يتذرعون بها فينسفها نسفًا. وهذا المسلك مسلك شرعي، وينبغي لأهل العلم والإيمان أن يتصدوا لمن وقع منه شيء من الضلالات وأشاع الشبهات أن يردوا عليه بالحجة والبرهان ويبطلوا قوله على الملأ.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

ونحن في هذا الزمان الذي بات كل زنديق يتمكن من نشر غثاءه على الملأ عن طريق الوسائط والحسابات لا بد لأهل العلم والإيمان أن يردوا عليه حتى يقطعوا دابر فتنته، لأن من الناس من يكون ساذجا ضعيف العقل، رقيق الدين، يشرق بالفتنة والشبهة فتضله، فمسؤولية أهل العلم والإيمان أن يردوا على الملاحدة والزنادقة وأهل البدع والأهواء بالحجة والدليل، وإذا جاء الدليل لم يبق لأحد مقال.

الفوائد المستفادة:

الفائدة الأولى: سنة الله الكونية في الابتلاء.

الفائدة الثانية: مشابهة المشركين الناكرين لنعمة النبوة بأصحاب الجنة الناكرين لنعمة المنة عليهم بذلك.

الفائدة الثالثة: وجوب الاستثناء عند الإخبار عن الأمور المجزوم بها.

الفائدة الرابعة: كمال قدرة الله.

الفائدة الخامسة: الفرق بين مشيئة العبد ومشيئة الرب.

الفائدة السادسة: إحضار الشح في النفوس.

الفائدة السابعة: شؤم التعاون على الإثم والعدوان، انظروا هؤلاء كيف أنهم تواطؤوا وتآمروا على إثم وعدوان، فهم تنادوا مصبحين ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وهذا يقع كثيرا عند بعض الناس، تجد أن بعضهم يشجع بعضا ويؤيد بعضا على أمر سوء، ولا يصغون لقول الناصح كما سيأتي، فهذا لشؤم تعاطيهم هذا التواصي بالسوء والإثم والعدوان جنوا هذه النتيجة المرة.

الفائدة الثامنة: إثبات حق الله وحق المسكين في الخارج من الأرض.

الفائدة التاسعة: شؤم الإعراض عن سماع الناصحين.

الفائدة العاشرة: وجوب تسبيح الله، وتنزيهه عن العجز والظلم.

الفائدة الحادية عشرة: فضيلة التوبة والمراجعة والاعتبار.

الفائدة الثانية عشرة: تمثيل الأدنى بالأعلى والأعلى بالأدنى لجامع بينهما.

الفائدة الثالثة عشرة: فضيلة التقوى وحسن عاقبتها.

الفائدة الرابعة عشرة: كمال عدل الله بين عباده وتنزيهه عن الظلم.

الفائدة الخامسة عشرة: النكير على من سوى بين المختلفات وفرق بين المتماثلات.

الفائدة السادسة عشرة: إبطال حجج المكذبين وتقصيها بالرد والإنكار واستهجانها.

الفائدة السابعة عشرة: التحذير من الهوى والتشهي في استنباط الأحكام والفتاوى. يجب على طالب العلم والمفتي أن ينأى بنفسه عن تتبع الرخص والبحث عن المخارج وما يطلبه المستمعون مما يروق لهم، بل يكون حاديه إصابة الحق، وليعلم أن إصابة الحق فيها اليسر وفيها الدخل، لكن عليه أن يتبع الدليل وألا يكون همه أن يقدم للسائل ما يشتهي أو أن يفتي نفسه بما يروق له، وتصبح عملية انتقاء كما حكى الله تعالى عن بني إسرائيل أنهم جعلوا كتابهم قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا، فما أعجبهم أظهروه وما لم يرق لهم تأولوه، فليحذر الإنسان من هذا المسلك.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الفائدة الثامنة عشرة: التحذير من الأوهام والأماني الباطلة. فعلى الإنسان أن يحذر من الأماني الفارغة، ولا يقتات على الوهم، عليك دوما أن تسأل وأن تتبين ما أنت عليه أهو حق أم لا في اعتقادك وقولك ومعاملاتك وكسبك وسائر أمرك، وأنك على بينة من ربك.

الفائدة التاسعة عشرة: أسلوب التحدي والمواجهة. هذا الأسلوب يحتاج إليه طالب العلم أحيانا وهو أن يستعمل أسلوب التحدي لأن فيه محق للشبهة، ولا شك أن هذا الأسلوب يدل على الثقة ويدل على الاعتداد بالحق، فينبغي لطالب العلم أن يكون كذلك.

الفائدة العشرون: إبطال الشرك وتهافته وعدم جدواه لأصحابه.

الشرك كخيط العنكبوت، {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون} [العنكبوت:٤١]، فالذين يتخذون شركاء يدعونهم من دون الله ﷻ ويلتجؤون إليهم فإنهم في الواقع قد جازفوا وغامروا في حياتهم بدنياهم وأخراهم، ولا يغني عنهم ذلك من الله شيئا.

فعلى الإنسان أن يعتصم بالعروة الوثقى التي هي التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهذا هو مشروع الأنبياء جميعا جاءوا لأقوامهم ليثبتوا التوحيد ويرسخوه في نفوسهم ويقطعوا جميع التعلقات التي يتعلق بها المشركون من عبادة غيرا لله ﷻ.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله